أنفاس الوردة..!

■ رانة نزال

آرثر رامبو في مُنمنماته الاثنتي عشرة يقول عن البربري «طويلاً بعد الأيام والفصول، والكائنات وسرداق اللحم النازف فوق حرير البحار، وأزهار المتجمد الشمالي اللاموجودة. متعافياً من الأبواق القديمة للبطولة - تلك التي ما زالت تهاجم أفئدتنا ورؤوسنا - بعيداً عن السفاحين القدامى والجدد. يا للعالم.. يا للموسيقى والأشكال. العرق، والعيون الطافية، والدموع البيض الفوارة، والصوت الأنثوي الآتي من أعماق البراكين ومن كهوف المتجمد الشمالي التي لا ورد فيها» فيمس بذلك شغف العالم في تغيراته المعاصرة والعتيقة، يمس تاريخه المتقلب وصراعه مع معناه، ويتحدث عن تبادل المعرفة والصورة، وعن حوار الثقافات وصدامها، ويعبر عن حالات التبدل الحادة، انه يتحدث عن شكل العالم الذي تنحره يد الجلاد وعن عمقه الذي يشهق كأنفاس وردة، وهو ذات المعنى الذي عبر عنه أنسي الحاج في حديثه عن كسر التاريخ عبر توصيفه لأحوال «العالم الذي يفرق في جو قدري لمسرحيات أوريبيد وأسخيلوس وسوفوكليس»، وأن الزمان في تحركه لم تختلف موضوعة حراكه إذ شيئاً لم يتغير فلا الحضارات التي احتضنت الشمس وجعلتها مركزاً لصراعها، ولا تلك التي حولت مخلوقات الطبيعة إلى آلهة تضرب بعصا غيرتها أو غضبها فتماثل الإنسان أو يماثلها لم تغير شيئاً في شكل الصراع ولا جوهره. فالأحداث حسب أنسي «الصغار منها والجسام ما برحت منذ الخليقة تعكس العجز نفسه والتحدي نفسه والمساعي نفسها للإفلات من القبضة» أتراها قبضة البربري ذاتها التي تحدث عنها رامبو ولما يتجاوز التاسعة عشرة من عمره ثم حرم الشعر على نفسه معلناً بذلك قطيعته مع الوردة، إذ فقد البربري الذي تصالح مع نفسه وصاغ العالم مهتماً بجوهره لا مظهره، مكباً على تأمله وفهمه والتعمق فيه وهو ذات التأمل الذي جعل من ذاتٍ إبداعية مهمة - ولن أستعمل أوصافاً فأقول ضخمة وخلاقة، بل سأكتفي بقول مهمة - علماً أن رولان بارت نفسه قد أمر بفضلها عليه، وأقصد هنا عبدالكريم الخطيبي الذي حاز جائزة «الربيع الكبرى» الفرنسية كأول عربي ومغربي يفوز بها عن مجمل أعماله، كما نال جائزة "لازيو" الايطالية في إقرار عالمي بفهمه الفلسفي للعالم ورؤيته الشعرية له هذا المفكر الباحث عالم الاجتماع والناقد الشاعر الذي يختصر رواياته وكتبه الفلسفية والفكرية والاجتماعية بقوله:

«وها أنا أغادر الحكمة المنظومة
ومواصلاً سيري في هذه الرحلة
جسمي يكتب الكلام ويحطمه
فيجعل الفضاء هندسة دقيقة متعددة الأصوات
إنه زوبعة القوانين
وانعكاس الضوء».

كُلٌ مهما علا وارتقى قصّر بحسمية النتيجة، لا شيء يشبه رائحة الوردة ذات فجر ندي، هي ذات الدعوة الأنيسية التي هي «ليست دعوة إلى الحنين فلا شيء هنا يستحق الحنين، ولا دعوة إلى اليأس فكل ما يقال ضد القهر هو ترياق من اليأس، إنها دعوة متجددة لكسر التاريخ. على أمل تسخيره. التاريخ يهزأ بنا لأننا مخدوعون بهيبته. فلنتحرر من سطوته، فلنحّصل ما سيحصل، لنحصله بأيدينا. بإرادتنا. بفك ارتباطاتنا الدهرية، بتجاهل السياسة وأهلها والدول وأربابها والانصراف إلى ما يشعرنا بأننا أحياء، أحياء حتى الثمالة كل ثانية. نصنع لنا من يومياتنا وأهوائنا وحرياتنا تاريخاً مجدداً لم يلتحق بما قبله»، فهل نشم الوردة إن أمكننا فعل ذلك؟ هل نصير البربري الأرثري؟ أم يلزمنا ليمكننا ذلك يوسف زيدان في مشروعه الروائي الذي يستهدف الكشف عن المناطق المنسية في التاريخ لأنه يرى «أن واقعنا المعاصر بكل ما فيه من عناصر مركبة ومتداخلة وأحياناً معقدة تشير إلى مناطق لا نعلم عنها الكثير» فهل إضاءتها تنّور أم تعّتم؟ هل نغمض عيون قلوبنا وننهم بشتم الوردة منسخلين عن جلدنا؟ أم نحدق في العتمة بانتظار الضوء؟ وما بين «ظل الأفعى» و«شعراء الصوفية المجهولون» الذي كانت طبعته الأولى خمساً وعشرين ألف نسخة نفذت لتلحقها الطبعات التالية حتى الرابعة في تعبير ساطع عن ظمأ لاستكناه التاريخ بأمل تبصر الحاضر ثم «العزازيل»، «فاللاهوت العربي»، «فالأنباط» كلها محطات يكرس يوسف جهده ومعرفته لإنارتها مجدداً بأمل بناء جسر من التواصل المبني على فهم الماضي لإمكان التحقق في الحاضر والمساهمة في المستقبل. فهل نفعل؟ ومنا من اتهمه بالهرطقة؟ أم الدرب شائك وهو قدر الألمعيين ومعلمهم ابن رشد الذي أحرقت كتبه ونفي.

حاله حال كل من مد يده إلى قبس الضوء ليخطفه ويعود به أدراجه، ولما حمله أدمته حجارة المعتمين، إنهم صناع التاريخ المضيء فكراً وألقاً وتأملاً وعمقاً وهم ذات الوقت ضحاياه. فماذا نفعل؟

الجزائري الهاشمي عامر «2-1»

منمنمتي عصرية ولغتها كونية

الوقت ـ صنعاء ـ عباس يوسف

احتضنت مدينة صنعاء عاصمة اليمن السعيد ملتقى صنعاء للفنون التشكيلية خلال شهر آيار/ مايو 2009 جمعت خلال فترة انعقاده كوكبة من ألمع الفنانين والنقاد العرب يتقدمهم الفنان العراقي المتميز رافع الناصري والفنان المصري محسن عبدالوهاب والناقد التونسي محمد بن حمودة ومي مظفر وآمنة النصري.. الخ. الحدث المختلف في هذه الدورة كما في السابقة هو المشاركة الجزائرية حيث تشارك بأعمال لربما تكون غريبة من حيث الطرح والموضوع والتقنية، غريبة حتى على مستوى التلقي سواء من الجمهور أو حتى الفنانين أنفسهم أو المهتمين أيضا، أنهم يقدمون أحد الفنون القيمة والمهمة والتي تعد الجزائر إحدى الدول الرائدة على المستويين العربي والإسلامي في تدريس هذا النوع من الفنون والمحافظة عليه بل وإنه مكرس بشكل رائع وحاضر بصورة جميلة عبر الكثير من المعاهد الفنية المتوزعة في مدن الجزائر تدرس بشكل علمي ممنهج فيها فنون المنمنمة أو الرسم التصغيري والذي ترجع أصوله إلى فترة العباسيين والصفويين والتيموريين. وقد ارتبطت بتزيين كتب الشعر والتاريخ بالرسوم التي أبدعن فيه بشكل باهر أكبر مدارس المخطوطات في فارس والهند وتركيا، وقد عرف هذا الفن مجده وتطويره في بلاد فارس متمثلا فيما تركه جهابذة المصورين أمثال بهزاد وآغاميرك والسلطان محمد ورضا عباس.

في ملتقى صنعاء للفنون من الفنانين المشاركين كان الهاشمي عمر، الفنان الجزائري الذي جاء حاملا معه مخزونه الجديد والمغاير كما أسلفنا متمثلا في مجموعة من المنمنمات أو إن شئنا الرسوم التصغيرية والتي كانت لافتة حقا لجهة دقة التنفيذ وقوة الأداء والموضوعة المطروحة فيها.. الهاشمي عمر سليل مكان "عرفت المنمنمات الإسلامية أسمى تجلياتها في أعمال محمد راسم الجزائري"

بشأن تجربته في هذا المجال.. رؤاه التي لربما هي مختلفة عما سواه.. نظرته المستقبلية لهذا النوع من الفنون.. كيف يتعامل معه ويتعاطاه كان لـ"الوقت" هذا اللقاء.

وعن الخيوط الأولى التي قادته وأخذته إلى هذا النوع من الفن، قال:

في العام 1982 اكتشفت شيئا اسمه المنمنمات، وتلقيت درس تعلمها على يد نخبة ومن خيرة أساتذتها في الجزائر، المرحوم الأستاذ مصطفى بن دباغ، والأستاذ محمد غانم وهما من تلامذة محمد راسم وكذلك الأستاذ أبو بكر صحراوي الذي تعلم فنون المنمنمة في إيران.

وأغلب الأسماء التي تشتغل الآن في الجزائر على المنمنمة تعد تابعة لفكر المرحوم محمد راسم وما زالت تمشي على خطاه/ علي كركوش، محمد غانم، مصطفى بن كحلة، موسى كشكاش، طاهر جاوود.

■ وماذا عن الهاشمي عمر ذاته؟

- أنا وليد عصري، أواكب الحداثة، مواضيع الساعة، لذا وجدتني بحماس ووعي ودراية عمدت في تمزيق الورق، وإدخال الكولاج على المنمنمة وأن استخدم الحبر الصيني بحرية من دون عوائق أبدا.

المنمنة (بتواضع أقولها) تنشد دائما التقنية.. التجديد، وتجريبي وبحثي الدائمان في هذا المضمار فقط بغية أن لا أكون تابعا لأحد كالفنان الكبير محمد راسم أو من سبقوه مثلا.

■ وماذا عن أيام المحنة التي مرت بها الجزائر؟ ماذا كنت تفعل؟

- تلك نسميها العشرة السوداء:

أنا وليد عصري، أواكب الحداثة، مواضيع الساعة، لذا وجدتني بحماس ووعي ودراية عمدت في تمزيق الورق

أي سنوات الأزمة الوطنية في الجزائر، والتي خلالها قررت ألا أغادر.. أن أبقى في الوطن، عملت بصعوبة رغم تعقد الوضع واضطرابه وعدم استقراره والذي أثناءه كان الفنانون يعيشون معاناة حقيقية ومضطهدين، خلال هذه السنوات عملت بشكل وافر، وصدرت خمسة كتب عن أعمالي الفنية، بالفعل كانت فترة خصبة محرضة على الإبداع.

■ أعرف أنك تلقيت درس المنمنمة في الصين الشعبية، ما الذي تعلمته هناك؟

- قبل الصين أتيحت الفرصة أن أدرس في فرنسا أو أي بلد آخر، لكني اخترت الصين لاعتقادي بأن تاريخها مختلف، متشعب ومتعدد أيضا، وحتى طرق الأداء الفني والتقني مغاير تماما، هناك في الصين تعلمت الكثير. تعلمت الثقة في الأداء/ التفكير/ الرزانة/ احترام العمل/ الالتزام/ إبداع التكوين وكيف تديره وتسيطر عليه.

الصين التي مكثت فيها مدة ثلاث سنوات دارسا المنمنمة أثرت في كثيرا إن على الصعيد النفسي أو النظرة الفنية لكثرة ما شاهدته من أعمال فنية ومن حياة ومن طرق تعامل الصينيين أنفسهم مع المفردات اليومية في الحياة. عرفت الدقة والتوازن واللعب في العمل الفني، وتعلمت الطريقة الصينية في الرسم/ والرسم في الهواء الطلق بتقنياتهم أيضا/ احترام الوقت والصراع معه/ والغزارة في الإنتاج/ رسمت بشكل جنوني/ تخطيطات سريعة/ الرسم بالأكريليك/ بالزيت/ أقول لم يعد لدي وقت أصرفه في غير الفن والإنتاج.

■ أخبرني.. عن ما بعد رحلتك الدراسية في الصين

- جئت متحمسا للمزيد من الإبداع، وقتها كان مدير مدرسة الفنون الجميلة في الجزائر الأستاذ أحمد عسلة وهو من عائلة ثورية كبيرة في الجزائر وقد اغتيل هو وابنه وسط حرم المدرسة، كان رحمة الله عليه يقدرني فساعدني على الالتحاق بالمدرسة كأستاذ تاريخ الفن العالمي والمنمنمات والزخرفة، وأعطاني الفرصة للاحتكاك بالطلبة والتعلم منهم أيضا/ أنا كسرت حاجز الخوف والأنانية التي غالبا ما يقوم عليها تدريس الخط والمنمنمات حيث إن الكثير من الأساتذة لا يعلمون بصورة مباشرة. بالنسبة لي أقوم بالتدريس وتدريب الطلبة وتحسيسهم بالنواحي الفنية والجمالية للمنمنمة بصورة مباشرة، وعبر هذا الأسلوب أقبل الشباب على تعلم فن المنمنمة.

إذن الأمر يتعلق بكيفية إيصال المعلومة وأسلوب تحبيب الطلبة لهذا النوع من الفن. يتبع..

الصين التي مكثت فيها مدة ثلاث سنوات دارسا المنمنمة أثرت في كثيرا إن على الصعيد النفسي